وفاة الملك الظاهر ودفنه

للأســـتاذ أحمد رمزى بك

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » (سورة فصلت الآية ٣٠)

إيه أيتها الليلة الظلماء القاتمة السواد لماذا فجرك يتأنى ويتمهل ؟ وأين صبح نهارك ؟ لماذا لا يشرق ؟

وأنت يا موكب الحزن الشامل مالك لا تزال مرابطاً بأشباحك السود على أبراج قلعة دمشق وعلى جدران القصر الأبلق ؟

أين الطبول والدبادب التى كانت تقرع على أسوار الحصون والقلاع ؟

أين آلات الحرب والكراع التى كانت تدك معاقل الأفرنج ما لها قد سكتت ؟

أين الأعلام وأين السيوف ؟ أتراها قد نكست وأغمدت لدى مصرع الملك الشهيد الراحل، وتنزلت أرواح الشهداء من الأمراء والجند بأمر الرحمن تحمل أرياح الجنة إلى قلعة دمشق تحيى بطل الفتوح وسيد المعارك الذى قادها إلى النصر والشهادة .

إنه يرقد بداخل تابوت تراه معلقاً وسط قاعة من قاعات الجند . إنه الملك الظاهر الذى لم تكن تحويه الدنيا بأسرها .

* * *

فى ساعة بعد الزوال من يوم الخميس ١٧ المحرم سنة ٦٧٦ هـ (يولية ١٢٧٧ ميلادية) فى حجرة من حجرات القصر الأبلق ومكانه اليوم التكية السليمانية بمدينة دمشق فاضت روح الملك الظاهر أبو الفتوح بيبرس بعد مرض بسيط لم يمهله غير أيام معدودات ، وبموته انتهت حياة أعظم ملوك مصر والشام طراً فى عصرها الإسلامى العربى المجيد لا بل فى جميع أعصر التاريخ .

وكان السلطان المعظم قد دخل دمشق على رأس جيشه الظافر عائداً من الجهاد عن طريق أنطاكية يحمل على جبينه غار النصر فى آخر حملة قادها إلى أواسط آسيا الصغرى حيث حارب وقاتل وقارع وانتصر ، ودخل مدينة قيصرية ، وخطب باسمه على منابر أرض الروم بعد أن كسر التتار هناك وشتت شملهم ، وحرر بلاد المسلمين من طغيانهم . ويقول مؤلف سيرته القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر :

« دخل دمشق معتقداً أن الدنيا فى يده قد حصلت ، وأن سعده استخلص له الأيام والليالى والممالك شرقاً وغرباً » ، ولكن المنية كانت على مقربة منه كما قال تعالى : « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » سورة الأنعام .

وكان رحمة الله ورضوانه عليه بطلا من أبطال الإسلام أمضى العمر مجاهداً فى سبيل الله ذائداً عن دينه وصفه المعاصرون فقالوا « كان طويل القامة أسمر اللون أزرق العينين أشعر اللحية جهورى الصوت شديد الهيبة تخضع له أسود الرجال وكان خفيف الركاب سريع الحركة لا يستقر فى جهة حتى يظهر فى أخرى » . يوماً بمصر ويوماً بالحجاز ويو ما بالشام ويوماً فى قرى حلب كان رجلا من رجال الله يحمل بين جنبيه قلباً لا يعرف المخاوف ولا ترهبه الأخطار ، وكان بعيد الهمة عظيم الآمال يقدم بطبعه على عظائم الأمور ويرحب بالمجازفة ومقارعة الأخطار ، يواجهها وهو ثابت مطمئن ويدفعها بالهدوء الذى يلازم النفس المطمئنة ذات النظرة النافذة التى لا تحيد عن الهدف ولا ترتد ، والتى تشعر بأن لصاحبها من القوى الكامنة والظاهرة ما يجعله يسيطر على حوادث الزمن ، وأن فيه من صفات الرجولة ما يجعله بطلا من أبطال العالم ، وأنها تشعرك بأن لوازم القيادة متأصلة فيه ، فهى التى أوصلته أن يتحكم على نفسه ويقودها كما شاء ثم مكنته أن قاد الناس معه .

كان من أبطال المسلمين المؤمنين بعظمة الإسلام لا ينفك يفكر فيه ويخفق قلبه له ، فهو من أولئك الذين إذا قاموا بعمل عظيم وضعوا كل شىء فى سبيل تحقيقه والوصول إليه . هؤلاء ليس لهم أن يختاروا من الأمور أوسطها وأسهلها أو يقفوا بين طريقين مترددين وجلين ؛ لم يكن من أولئك الذين تشغلهم أمور الدنيا فترى الواحد يوزع جهوده ذات اليمين وذات اليسار . بل

كان من الفريق الذى يضع عقله وروحه وما يملك فى إتمام ما بدأ فيه ويحشد عواطفه وغرائزه ، فى تأكيد إرادته نحو الغاية التى ينشدها ، فكان أن وصل بالإيمان والثقة إلى أن تملكته نفحة من تلك النفحات الدافعة التى يُسبغها المولى على من اختار من عباده ، فأصبحت هذه النفحة غريزة فى خُلُقه وقوة فى نفسه ودمه ، تحرّكه للعمل والجهاد فى سبيل الله وخدمة دينه ونصرة كلمته ، فغدا بهذه النفحة قوة من قوى الخالق جل شأنه « إنى لهذا أقتك لكى أرى قوتى فيك » .

***

عجب الناس له : إذ رأوه ملكا على أعظم ما تكون الملوك عليه هيبة ووقاراً ، وقائداً على أعظم ما يكون عليه القواد أمام الأخطار والمعارك ، ساس الملك وخاض المعارك فأدهش الدنيا بملكه وعظمته ، وأدهشها بفتوحاته وانتصاراته ومواقفه الحاسمة الفاصلة . حكم فعدل ، وخُطب باسمه فى مشارق الأرض ومغاربها وأعاد الخلافة العباسية ، وقاد الجند فى الحروب فما من معركة دخلها ضد الفرنج أو التتار إلا وانتزع النصر من أيدى أعدائه ، فحطم قلاعهم وحصونهم وساق الملوك والأمراء والقادة أسرى بين يديه . لهذا بقيت صورة الملك الظاهر حيّة خلال الأعصر ، ولهذا صاحبت أعماله السنين ، وبقيت خالدة مع الزمن راسخة فى قلوب الناس جيلا بعد جيل يتناقلها الخلف عن السلف ويسمر بسيرته الرجال .

ألم تر السامعين لسيرته . ما الذى يجمعهم حولها ويجعلهم يأنسون بها ؟ إنهم يلتمسون من عزيمته وعزمه ما يقوى عزيمتهم وعزمهم ، إنهم يرون فى صبره وإقدامه وشجاعته ما يخفف من وقع الأحداث والنوائب عليهم ، ولذلك عاشت سيرته وأعماله وأصبحت أعماله مضرب الأمثال ، وأطلت شخصيته من وراء الأجيال والقرون تحدّث الناس بدروس البطولة والمجد .

***

وفى ليلة وفاته كتب مؤلف سيرته : « قبض الله روحه الزكية فرجعت إلى ربها راضية مرضية ، وكأن نفوس العالم كانت نفساً ، وأنزل الله السكينة فلا تسمع إلا همساً ، واستصحب نهايته السكوت ، وخادعت العقول نفسها بين مصدق ومكذب ، وسكتت الشفاه والألسنة ، وتناومت النفوس من غير نوم ولا سنة ، وأسدلت ستور المهابة ، وأُفرد بقاعة من القلعة يُوماً إليه بالترحم والسلام ، ولا يزوره غير الملائكة الكرام ، وكانت مدة مرضه قدّس الله روحه ثلاثة عشر يوماً ، وهى مدة مرض الشهيد صلاح الدين رحمهما الله تعالى » .

وفى قاعة من بيوت الجند من المماليك البحرية بقلعة دمشق وضع جثمان الملك الظاهر فى تابوت بعد أن تولى غسله وتصبيره وتكفينه خادمه الخاص الشجاع عنبر ، وساعده المؤذن كمال الدين على المنيحى بحضور الأمير عز الدين الافرم ، وبقى التابوت معلقاً حتى شهر رجب من تلك السنة حينما جاء وفد من القاهرة لدفنه بتربته التى أنشئت بالمدرسة الظاهرية . ذكر صاحب البداية والنهاية : أن العمارة بدأت فى يوم السبت تاسع جمادى الأولى فى مكان الدار المجاورة لحمام العقيق تجاه المدرسة العادلية ووضعت أسس التربة فى خامس جمادى الآخرة .

عندئذ أوفد ابنه الملك السعيد : الأمير علم الدين سنجر والطواشى صفى الدين جوهر الهندى فوصلا من مصر إلى دمشق ، ولما كانت ليلة الجمعة الخامس عشر من رجب سنة ٦٧٦ حمل نعش الملك الظاهر من القلعة ليلا على أعناق الرجال :

خرجوا به فوق الرقاب وساروا ... تهديهم من وجهه الأنوار
وسروا به ليلا ليخفوا قبره ... والليل لا تخفى به الأقمار
هم سارعوا نحو الثرى بعبيره ... وقبوره الأسماع والأبصار

وسارت جنازته إلى صحن الجامع الأموى للصلاة عليه ، ولما انتصف الليل خرجوا به يتقدمهم نائب السلطنة المصرية بالشام الأمير عز الدين أيدمر ومعه أمراء جند الشام وتوجهوا به إلى المدرسة الظاهرية ثم إلى التربة التى أنشئت له ، وهناك الحد قاضى القضاة عز الدين بن الصايغ . ولما أرقد رقدته النهائية بدأ القراء مستفتحين بالآية الكريمة « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » ، ولقد زرت هذا الضريح ووصفته على حالته بعدد « الرسالة » ٤٧٠ المؤرخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، وكنت

لا أدخل دمشق إلا جعلت من برنامجي زيارة هذا القبر الطاهر والوقوف أمامه أرتل قول القائل نقلا عن ابن الفرات :

صاح هذا ضريحه بين جفنيّ · فزوروا من كل فج عميق

وهو القائل أيضاً : « إن الأسف تجدّد بدفنه فكأن العالم فجموا بأبيهم الشفوق ، وقضوا حق التعزية وأنى يقضى أحد ما له من الحقوق » .

ولقد تقلبت بي الأيام وتنقلت بين بلدان كثيرة وأتيت من كل فج عميق لأجدد عهد الإخلاص أمام الملك الظاهر أعظم ملوك الإسلام المجاهدين المرابطين ، فما وجدت بقعة أوحت إليّ وملأت روحي مثل هذه البقعة وقبر صلاح الدين . لقد جعلاني أومن بحق الوطن الخالد وعظمة مصر قلب العروبة والإسلام وأوحت كل منهما إليّ بالدوافع النفسية للعمل وعرفتني مكانة بلادي في التاريخ إن القوى الكامنة فيها لا تقهر وإنها سوف تظهر للعالم وتكتب في تاريخ العرب والمسلمين صفحة جديدة ، وستبعث بعثاً جديداً بإذن الله .

إلى هذه التربة انتهى السير بجثمانه الطاهر ليرقد رقدته الأبدية إلى يوم البعث إذ هناك يرقد بطل المنصورة وعين جالوت وصاحب الفتوحات الكبرى : قيصرية وارسوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وأنطاكية وحصن الأكراد ، وغيرها من البلاد والحصون والقلاع ، صاحب مصر والشام وبرقة والحجاز والنوب وأرض الفرات :

تدبر الملك من مصر إلى يمن · إلى العراق وأرض الروم والنوبي

ولن أترك الظاهرية من غير أن أشير إلى ما ذكره اليونيني في تاريخه عن أول درس للشريعة ألقي بها بعد بنائها إذ قال : « وفي يوم الأربعاء ثالث عشر صفر كان أول درس بها ترأسه نائب السلطنة المصرية بالشام ، وكان درساً حافلا حضره القضاة وكان مدرس الشافعية الشيخ رشيد الدين محمود بن الفارابي ، ومدرس الحنفية صدر الدين سليمان ، ولما توفي تولى بعده حسام الدين أبو الفضائل الحسن بن أنوشروان الرازي الحنفي الذي كان قاضياً بمدينة ملطية » .

ها قد عشت يوماً من أيام الملك الظاهر فانظر أثابك الله إلى آثار ذلك العهد وإلى علمائه وتعجب لحالنا اليوم وما نحن فيه .

فهل فكّر أهل مصر والشام في الظاهرية والملك العظيم المدفون بداخلها ؟ هل أعطيت له مكانة البطولة التي يستحقها في التاريخ ؟ انظر إلى الحجر الرخامي على الباب تجده من عمل أحد الولاة بدمشق فيه شعر ركيك بالعربية وبالتركية يكيل المدح ، وينسى واضعه أن يذكر صاحب المدرسة والتربة بكلمة واحدة .

ومن نكد الدنيا أن الوقفية على المدرسة الظاهرية منقوشة على أحجار البناء على الباب الكبير ، ولكن هذا لم يمنع الولاة والغاصبين من أن يحرموا الظاهرية من القرى الموقوفة على دروس الدين . إني أستحي من نفسي وأخشى أن يقرأني العالم إذا ذكرت للناس أسماء الضياع وأسماء من اغتصبها : رحم الله الإسلام والمسلمين ووقانا من شر أعمالنا .

قضى وله على الدنيا أيادٍ · يصح بها من الزمن السقام

فراح من الملائك في صفوف · لهم من حول تربته زحام

أحمد رمزي

لم يبق في إدارة الرسالة
إلا نسخ محدودة
من كتاب :
دفاع عن البلاغة
للأستاذ
أحمد حسن الزيات
فبادر إلى طلب نسختك من « دار الرسالة »
ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد